الباب الثامن عشر : في مبادئ نسبه و طهارة مولده صلى ا تعالى عليه و سلم .

الأنبياء صفوة العباد : .

لما كان أنبياء ا صفوة عباده و خيرة خلقه لما كلفهم من من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر و أمدهم بأوكد الأواصر حفظا لنسبهم من قدح و لمنصبهم من جرح لتكون النفوس لها أوطأ و القلوب لهم أصفا فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع و لأوامراهم أطوع .

و لما تفرع الملك عن إبراهيم و اختصت النبوة بولده انحازت إلى ولد إسحاق دون إسماعيل فصارت في بني إسرائيل لكثرتهم بعد القلة و قوتهم بعد الذلة فبدأت النبوة بموسى و انختمت بعيسى .

تكاثر ولد إسماعيل : .

و لما كثر ولد إسماعيل و انتشروا في الأرض تميز بعد الكثرة ولد قحطان عن ولد عدنان و استولت قحطان على الملك انحازت النبوة إلى ولد عدنان فأول من أسس لهم مجدا و شيد لهم ذكرا معد بن عدنان حين اصطفاه بختنصر و قد ملك أقاليم الأرض و كان قد هم بقتله حين غزا بلاد العرب فأنذره نبي كان في وقته بأن النبوة في ولده فاستبقاه و أكرمه و مكنه و استولى على تهامة بيد عالية و أمر مطاع و فيه يقول مهلهل الشاعر : .

(غنيت دارنا تهامة بالأمس ... و فيها بنو معد حلولا) .

عز نزار بن معد : .

ثم ازاداد العز بولده نزار و انبسط به اليد و تقدم عند ملوك الفرس و اجتباه [تستشف] ملك الفرس و كان اسمه خلدان و كان مهزول البدن فقال الملك : ما لك يا نزار ؟ و تفسيره في لغتهم : يا مهزول فغلب عليه هذا الاسم و فيه يقول قمعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان : .

(جديسا خلفناه و طسما بأرضه ... فأكرم بنا عند الفخار فخار) .

(فنحن بنو عدنان خلدان جدنا ... فسماه تستشف الهمام نزارا) .

(فسني نزارا بعدما كان اسمه ... لدى العرب خلدان بنوه خيارا) .

أولاد نزار الأربعة : .

و كان لنزار أربعة أولاد : مضر و ربيعة و إياد و أنمار فلمل حضرته الوفاة وصاهم فقال : يا بني هذه القبة الحمراء و ما أشبهها لمضر و هذا الخباء الأسود و ما أشبهه لربيعة و هذه الخادمة و ما أشبهها لأياد و هذه الندوة و المجلس و ما أشبهها لأنمار فإن أشكل عليكم

و اختلفتم فعليكم بالأفعى الجرهمي بنجران .

فاختلفوا في القسمة فتوجهوا إليه فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رعي فقال : إن البعير الذي رعى هذا الكلأ لأعور و قال لربيعة : هو أزور و قال إياد : هو أبتر و قال أنمار : و هو شرود فلم يسيروا قليلا حتى لقيهم رجل يوضع على راحلته فسألهم عن البعير فقال مضر : هو أعور قال نعم قال ربيعة : هو أزور قال : نعم و قال إياد : هو أبتر قال نعم و قال أنمار : هو شرود قال نعم و هذه و ا صفة بعيري فدلوني عليه فقالوا : و ا ما رأيناه قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه .

و سار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمي فناداه صاحب البعير هؤلاء أصحاب بعيري وصفوه لي بصفته و قالوا : لم نره فقال لهم الأفعى الجرهمي : كيف وصفتموه و لم تروه ؟ .

فقال مضر : رأيته يرعى جانبا و يترك جانبا فعرفت أنه أعور .

و قال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر و الأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور .

و قال إياد : رأيت بعره مجتمعا فعرفت أنه أبتر .

و قال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود .

فقال الجرهمي لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلب من غيرهم ثم سألهم من هم فأخبروه أنهم بنو نزار بن معد فقال : أتحتاجون إلي و أنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام فأكلوا و بشراب فشربوا و شرب فقال مضر لم أر كاليوم خمرا أجود لولا أنها نبتت على قبر و قال ربيعة : لم أر كاليوم لحما أطيب لولا أنه ربي بلبن كلبة و قال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرى لولا أنه يدعي لغير أبيه و قال أنمار : لم أر كاليوم كلاما أنفع في حاجتنا و سمع الجرهمي الكلام فتعجب لقولهم و أتى أمه فسألها فأخبرته : أنها كانت تحت ملك لا ولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلا من نفسها كان نزل بها فوطئها فحملت منه به و سأل القهرمان عن الخمر فقال من كرمة غرستها على قبر أبيك و سأل الراعي عن اللحم فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة لأن الشاة حين ولدت ماتت و لم يكن ولد في الغنم شاة غيرها فقيل لمضر من أين عرفت الخمر و نباتها على قبر ؟ قال : لأنه أصابني عليها عطش شديد .

و قيل لربيعة من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على لبن كلبة ؟ قال : لأني شممت منه رائحة الكلب .

و قال لإياد : من أين عرفت أن الرجل يدعى لغير أبيه ؟ قال لأبي رأيته يتكلف ما يعمله .

ثم أتاهم الجرهمي و قال : صفوا لي صفتكم فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم نزار فقضى لمضر بالقبة الحمراء و الدنانير و الإبل و هي حمر فسمي مضر الحمراء و قضى لربيعة بالخباء الأسود و الخيل الدهم سمي ربيعة الفرس و قضى لأياد بالخادمة الشمطاء و الماشية البلق و قضى لأنمار بالأرض و الدراهم .

مضر و خزاعة يستولون على الحرم : .

و هذا الذي ظهر في أولاد نزار من قوة الذكاء و حدة الفطنة تأسيسا لتمييزهم بالفضل و اختصاصهم بوفور العقل مقدمة لما يراد بهم ثم تفرقت القبائل منهم فاختص ولد مضر بن نزار بالحرم فتميزوا بأنسابهم و تناصروا بسيوفهم حتى استولت قريش على الحرم بعد جرهم و خزاعة لأن جرهم كانوا جبابرة فبغوا و تجبروا حتى بعث ا تعالى عليهم الرعاف و النمل فأفناهم و أفضى أمرهم إلى عامر بن الحرث و هم القائلون : .

(واد حرام طيره و وحشة ... نحن ولاته فلا تغشه) .

فاجتمعت خزاعة و رئيسهم عمرو بن ربيعة بن حارثة على عامر بن ربيعة و بقية جرهم فأخرجوهم من الحرم و استولت عليه خزاعة و ولي البيت عمرو بن ربيعة فقال : .

(نحن ولينا البيت بعد جرهم ... نعمره من كل باغ ملحد) .

و لما انحاز عامر بن الحرث مع بقية جرهم عن الحرم عند استيلاء خزاعة عليه خرج بغزالي الكعبة و حجر الركن يلتمس التوبة و هو يقول : .

(لاهم إن جرهما عبادك ... الناس طرف و هم تلادك) .

فلم تقبل توبته فألقى غزالي الكعبة و حجر الركن في زمزم و دفنها و خرج ببقية جرهم و هو يقول : .

(كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس و لم يسمر بمكة سامر) .

(بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي و الدهور الغوابر) .

فلما رأى عامر بن الحرث الجرهمي ما صاروا إليه بعد الكثرة و القوة قال : .

(يا أيها الناس سيروا إن قصركم ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا) .

(كنا أناسا كما كنتم فغيرنا ... دهر فأنتم كما كنا تكونونا) .

(خطوا المطى و أرخوا من أزمتها ... قبل الممات و قضوا ما تقضونا) .

فوليت خزاعة البيت و الحرم غير أنه كان في مضر من أمره ثلاث خلال .

إحداهن : الدفع عن عرفة إلى المزدلفة كان إلى الغوث بن بزمر و هو صرفه .

الثانية : الإفاضة من مزدلفة إلى منى للنحر كان لزيد بن عدوان و آخر من أفضى إليه أبو سيارة .

الثالثة : النسيء لشهور الحج كان للمتلمس من بني كنانة و آخر من أفضى إليه حتى جاء الإسلام : ثمامة بن عوف فشركت مضر خزاعة في معالم الحج و إن كانت زعامة الحرم لخزاعة و قريش في أوزاع بني كنانة من مضر .

زعامة الحج لقريش : .

و أفضت معالم الحج من أوزاع من مضر إلى قريش فولاها منهم كعب ابن لؤي بن غالب و كان

يجمع الناس في كل يوم جمعة و يخطب فيه على قريش فيأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يقول : حرمكم عظموه و تمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم و سيخرج منه نبي كريم و هو أول من فصح بالنبوة حين شاهد آثارها و عرف أسرارها من انقياد العرب إليهم تدينا بحرمهم و إعظاما لكعبتهم و كان ذلك إلهاما هجست به نفسه و تخيلا صدق فيه حدسه لأن لكل خطب نذيرا و لكل مستقبل بشيرا و انتهضت خزاعة في الحرم إلى خليل بن الحبشية الخزاعي فكان يلي الكعبة و أمر مكة فتزوج إليه قصي بن كلاب فاشتد به قصي و كان اسمه زيد فلما هلك خليل رأى قصي أنه أولى بالولاية على الكعبة و أمر مكة من خزاعة فاستولى عليها .

قصي يلي أمر الكعبة و مكة : .

و اختلف في سبب استيلائه فقال قوم لأن خليلا أوصى إليه بذلك و قال آخرون بل اشتراه من آل خليل بزق من خمر و قال آخرون بل استنصر على خزاعة بأخيه لأمه رزاح بن ربيعة القضاعي حتى أجلي خزاعة عن مكة فخلصت الرياسة لقصي فجمع قريشا و هم في أوزاع بني كنانة فمنعت بنو كنانة منهم فحاربهم بمن أطاعه حتى أفردهم منهم و جمعهم بمكة فسمي مجمعا و فيه يقول شاعرهم : .

(أبونا قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع ا القبائل من فهر) .

قصي يقسم مكة بين قومه : .

فلما اجتمعوا أنزلهم بطحاء مكة في الشعاب و رؤوس الجبال و قسمها بينهم أرباعا بين قومه و أنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها و كانت إليه الحجابة و السقاية و الوفادة و الندوة و اللواء و صارت سنته في قريش كالدين الذي لا يعمل بغيره فزادت القوة بجمعهم حتى عقد الولاية و جدد بناء الكعبة وهو أول من بناها بعد إبراهيم و إسماعيل و بنى دار الندو للتحاكم و التشاجر و التشاور و هي أول دار بنيت بمكة و كانوا بمكة و كانوا يجتمعون في جبالها .

ثم بني القوم دورهم بها فتمهدت لهم الرياسة و ظهرت فيهم السياسة فصاروا بها زعماء عبادة أنذرت بطاعة إلهية و ديانة نبوية توطئة لما جدده ا تعالى منها برسوله و تأسيسا لمباديها فقاموا بالكعبة و نزهوا الحرم و تكفلوا بالحج فصاروا دياني العرب و مولاة الحرم و قادة الحجيج و شاع ذلك في الأمم .

فحكى قوم من دياني العرب أن جماعة من ملوك الفرس زاروا الكعبة بمكة و عظموها و حملوا إليها صنوف الثياب و أنواع الطيب و زمزموا و من معهم من الفرس عند بئر زمزم فلذلك سميت زمزم و استشهد قائل هذ بقول الشاعر : .

(زمزمت الفرس على زمزم ... و ذاك في سالفه الأقدم) .

من هم قريش ؟ .

و قريش هم ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر و قيل : بل هم بنو فهر بن مالك بن النضر فمن نسبهم إلى النضر فلأنه تفرقت قبائل بني كنانة و قيل كان يسمى قريشا و من نسبهم إلى فهر فلأن فهرا في زمانه كان رئيس الناس بمكة و قصدها حسان بن عبد كلال في حمير و قبائل اليمن ليهدم الكعبة و ينقل أحجارها إلى اليمن ليبنيه بيتا باليمن يجعل حج الناس إليه فنزل بنخلة و أغار على سرح مكة فسار إليه فهر في كنانة و أحلافهم من قبائل مضر فانهزمت حمير و أسر الحرث بن فهر حسان بن عبد كلال فبقي في يد فهر ثلاث سنين أسيرا بمكة حتى فدى نفسه و خرج فمات بين مكة و اليمن فعظم بهذا الحرث شأن فهر فأغزت إليه قريش حين حمى مكة و منع من هدم الكعبة و كانت من أشباه عام الفيل .

سبب تسمية قريش : .

و اختلف في تسميتهم قريشا على أربعة أقاويل أحدها : لتجمعهم بعد التفرق و التقرش التجمع و منه قول الشاعر : .

(إخوة قرشوا الذنوب علينا ... في حديث من دهرهم و قديم) .

و الثاني : لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم و القرش التكسب : .

و الثالث : لأنهم كانوا يفتشون الحاجة عند ذي الخلة فيسدون خلته و القرش التفتيش و منه قول الشاعر : .

(أيها السامت المقرش عنا ... عند عمرو فهل له إبقاء) .

و الرابع أن قريشا اسن دابة في البحر من أقوى دوابه سميت بها قريش لقوتها لأنها تأكل و لا تؤكل و تعلو لا تعلى : .

قاله ابن عباس و استشهد بقول الشاعر : .

(و قريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا) .

(سلطت بالعلو في لجة البحر ... على ساكني البحور جيوشا) .

(تأكل الغث و السمين و لا ... تترك يوما لذي الجناحين ريشا) .

(هكذا في البلاد حتى قريش ... يأكلون البلاد أكلا كشيشا) .

(و لهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم و الخموشا) .

(تملأ الأرض خيله و رجال ... يحشرون المطي حشرا كميشا) .

سبب تسمية مكة : .

و هذا من هواجس النفوس المخبرة و آيات العقول المنذرة .

فأما مكة فلها اسمان مكة و بكة و قد جاء القرآن بهما و اختلف في الاسمين هل هما لمسمى واحد أو لمسمين على قولين : .

أحدهما : إنه لمسمى واحد لأن العرب تبدل الميم بالباء فيقولون ضربة لازم و لازب لقرب

المخرجين .

و القول الثاني : و هو أشبه أنهما اسمان لمسميين و اختلف من قال بهذا في السمى منهما على قولين أحدهما أن مكة اسم البلد و بكة اسم البيت و هذا قول إبراهيم النخعي و القول الثاني : أن مكة الحرم كله و هذا قول زيد بن أسلم فأما مكة فمأخوذة من قولهم تمككت المخ إذا استخرجته لأنها تمك الفاجر أي تخرجه قال الشاعر : .

(يا مكة الفاجر مكي مكا ... و لا تمكي مذحجا و عكا) .

و أما بكة قال الأصمعي سميت بذلك لأن الناس يبك بعضهم بعضا أي يدفع و أنشد قول الشاعر : .

(إذا الشريب أخذته بكة ... فخله حتى يبك بكه) .

رئاسة قريش تفضي لعبد مناف : .

ثم أفضت رئاسة قريش بعد قصي إلى ابنه عبد مناف بن قصي فجاد و زاد و ساد حتى قال فيه الشاعر : .

(كانت قريش بيضة فتفقأت ... فالمح خالصه لعبد مناف) .

و كان اسمه المغيرة فدفعته أمه إلى مناف و كان أعظم أصنام مكة تعظيما له فغلب عليه عبد مناف و كان يسمى القمر لجماله فاستحكمت رياسته بعد أبيه لجوده و سياسته ثم ببنيه فولد له هاشم و عبد شمس توأمان في بطن فقيل إنه ابتدأ خروج أحدهما و إصبعه ملصقة بجبهة الآخر فلما ازيلت دمي موضعها فقيل يكون بينهما دم .

هاشم يسود قريش : .

ثم ولد بعدهما نوفل ثم المطلب و كان أصغرهم فسادوا و تقدمهم هاشم لسخائه و سؤدده و كان اسمه عمرا فسمي هاشما لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة في سنة لزبة قحطة رحل فيها إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق و قدم به إلى مكة و نحر الجزر و جعلها ثريدا عم به أهل مكة حتى استقلوا فقال فيه الشاعر : .

(يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف) .

(الآخذون العهد من آفاقها ... و الراحلون لرحلة الإيلاف) .

(و الرايشون و ليس يوجد رايش ... و القائلون هلم للأضياف) .

(و الخالطون غنيهم ... بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي) .

(عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... و رجال مكة مسنتون عجاف) .

هاشم سن رحلتي الشتاء و الصيف : .

و هاشم أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء و رحلة الصيف و أراد أمية بن عبد شمس أن يتشبه بهاشم في صنيعة فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش فقال فيه وهب بن عبد قصي : .

(تحمل هاشم ما ضاق عنه ... و أعيا أن يقوم به بريض) .

(أتاهم بالغرائر مثقلات ... من الشام بالبر البغيض) .

(فأوسع أهل مكة من هشيم ... و شاب اللحم باللحم العريض) .

العداوة بين أمية و هاشم : .

و نشبت العداوة بين أمية و هاشم و أراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه و قدره فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعي في خمسين ناقه سود الحدق ينحرها ببطن مكة و الجلاء من مكة عشر سنين فنفر الخزاعي هاشما و قال لأمية : تنافر رجلا هو أطول منك قاما و أعظم منك هامة و أحسن منك و سمة و أقل منك لامة و أكثر منك ولدا و أجزل منك صفرا .

فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما فأخذ هاشم الإبل فنحرها و أطعمها من حضره و خرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين .

فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم و أمية و ملك هاشم الوفادة و السقاية و استقرت له الرياسة و صارت قريش له تابعة تقاد لأمره و تعمل برأيه و تنافرت قريش و خزاعة إليه فخطبها بما أذعن له الفريقان بالطاعة فقال في خطبته : .

خطبة هاشم : .

أيها الناس نحن آل إبراهيم و ذرية إسماعيل و بنو النضر بن كنانة و بنو قصي بن كلاب و أرباب مكة و سكان الحرم لنا ذروة الحسب و معدن المجد و لكل في كل حلف يجب عليه نصرته و إجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة و قطع رحم .

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه و السيف لا يصان إلا بغمده و رامي العشيرة يصيبه سهمه و من أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس الحلم شرف و الصبر ظفر و المعروف كنز و الجود سؤدد و الجهل سفه و الأيام دول و الدهر غير و المرء منسوب إلى فعله و مأخوذ بعمله فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد و دعوا الفضول تجانبكم السفهاء و أكرموا الجليس يعمر ناديكم و حاموا الخليط يرغب في جواركم و أنصفوا من أنفسكم يوثق بكم و عليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة و إياكم و الأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشرف و تهدم المجد ألا و إن نهنهة الجاهل أهون من حزيرته و رأس العشير يحمل أثقالها و مقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة و هي كنيته فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق و نهى عنه من مساوئ الأفعال هل صدر إلا عن عزارة فضل و جلالة قدر و علو همة ؟ و ما ذاك إلا لاصطفاء يراد و ذكر يشاد لأن توالي ذلك في الآباء يوجب تناهيه في الأبناء .

عبد المطلب يحل محل هاشم : .

و مات هاشم بغزة من أرض الشام و هو أول من مات من ولد عبد مناف ثم مات عبد شمس بمكة

فقبر بأجياد ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق و مات المطلب بربمان من أرض اليمن و كان هاشم قد تزوج بيثرب من الخزرج بسلمى بنت عمرو النجارية فولدت له بيثرب عبد المطلب و كان اسمه شيبة الحمد و نشأ فيهم حتى مات أبوه هاشم و انتقلت عنه الرياسة و الوفادة و السقاية إلى أخيه المطلب و وصف له شيبة بيثرب فخرج فاستنزل أمه عنه حتى أخذه منها و دخل به مكة مردفا له فقالت قريش من هذا ؟ فقال : عبدي فسمي عبد المطلب إلى أن مات فوثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف في ركح كان له فاغتصبه إياه و الركح الساحة فسأل عبد المطلب رجالات قومه النصرة عى عمه فقالوا : لسنا داخلين بينك و بين عمك فلما رأى عبد المطلب ذلك كتب إلى أخواله من بني النجار يقول : .

(يا طول ليلى لأشجاني و أشغالي ... هل من رسول إلى النجار أخوالي) .

(يبني عديا و دينارا و مازنها ... و مالكا عصمة الجيران عن حالي) .

(و كنت ما كنت حيا ناعما جذلا أمشي الغضية سحابا لأذيالي) .

(حتى ارتحلت إلى قومي و أزعجني عن ذاك مطلب عمي بترحالي) .

(فغاب مطلب في قعر مظلمة و قام نوفل كي يعدو على مالي) .

(أإن رأى رجلا غابت عمومته و غاب أخواله عنه بلا والي) .

(أنحى عليه و لم يحفظ له رحما ما أمنع المرء بين العم و الخال) .

(فاستنفروا و امنعوا ضيم ابن أختكم ... لا تخذلوه و ما أنتم بخذالي) .

(ما مثلكم في بني قحطان قاطبة حي لجار و إنعام بإفضال) .

(أنتم كيان لمن لانت عريكته سلم لقوم و سماح الأبلج العالي) .

فقدم عليه ثمانون راكبا من بني النجار و نصروه على عمه نوفل و ارتجعوا منه الركح و عادوا و قد اشتد بهم عبد المطلب فدعا ذلك نوفلا أن حالف بني عبد شمس على عبد المطلب و بني هاشم و دعا ذلك عبد المطلب على أن حالف بني هاشم على نوفل و بني عبد شمس فقوي عبد المطلب و ضعف نوفل .

و انتقلت السقاية و الوفادة و الرياسة إلى عبد المطلب و أخذ نوفل عهدا من أكاسرة العراق و صارت رحلته إليها و أخذ عبد المطلب عهدا من ملوك الشام و أقيال حمير باليمن و صارت رحلته إليها و حفر عبد المطلب حين قوي و اشتد بئر زمزم و أخرج منها ما كان ألقاه فيها عامر بن الحرث الجرهمي من غزالي الكعبة و حجر الركن فضرب الغزالين صفائح ذهب على باب الكعبة و وضع الحجر في الركن .

و صار عبد المطلب سيدا عظيم القدر مطاع الأمر نجيب النسل حتى مر به أعرابي و هو جالس في الحجر و حوله بنوه كالأسد فقال : إذا أحب ا إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء فأنشأ ا لهم بالنبوة دولة خلد بها ذكرهم و رفع لها قدرهم حتى سادوا الأنام و صاروا الأعلام .

و صار كل من قرب إلى رسول ا صلى ا تعالى عليه و سلم من آياته أعظم رياسة و تنوها و أكثر فضلا و تألها .

عبد المطلب ينذر نذرا خطيرا : .

فحكى الزهري و يزيد بن رومان و صالح بن كيسان أن المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور و رآهم بين يديه رجالا إن ينحر أحدهم للكعبة شكرا لربه حين أعلم أن إبراهيم أمر بذبح ولده تصورا من أنه أفضل قربة فلما استكمل ولده العدد و صاروا له من أظهر العدد قال لهم : يا بني كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم فما تقولون ؟ قالوا : الأمر لك و إليك و نحن بين يديك فقال : لينطلق كل واحد منكم إلى قدحه و ليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوا بالقداح فأخذها و جعل يرتجز و بقول : .

(عاهدته و أنا موف عهده ... و ا لا يحمد شيء حمده) .

(إذ كان مولاي و كنت عبده ... نظرت نظرا لا أحب رده) .

(و لا أحب أن أعيش بعده) .

ثم دعا بالأمين الذي يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم و قال : حرك و لا تعجل و كان أحب ولد عبد المطلب إليه عبد ا فضرب صاحب القداح السهم على عبد ا فأخذ عبد المطلب الشفرة و أتى بعبد ا و أضجعه بين أساف و نائلة و أنشأ مرتجزا يقول : .

(عاهدته و أنا موف نذره ... و ا لا يقدر شيء قدره) .

(هذا بني قد أريد نحره ... و أن يؤخره يقبل عذره) .

و هم بذبحه فوثب إليه ابنه أبو طالب و كان أخا عبد ا لأبيه و أمه و أمسك يد عبد المطلب عن أخيه و أنشأ مرتجزا يقول : .

(كلا و رب البيت ذي الأنصاب ... ما ذبح عبد ا بالتلعاب) .

(يا شيب إن الريح ذو عقاب ... إن لنا جرة في الخطاب) .

(أخوال صدق كأسود الغاب) .

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبي طالب ـ و كانوا أخواله ـ قالوا : صدق ابن أختنا و وثبوا إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره فقال : إني نذرت نذرا و قد خرج القدح و لا بد من ذبحه قالوا : كلا لا يكون ذلك أبدا و فينا ذو روح و إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف و تالد و أنشأ المغيرة بن عبد ا بن عمر بن مخزوم مرتجزا يقول : .

(يا عجبا من فعل عبد المطلب ... و ذبحه ابنا كتمثال الذهب) .

(كلا و بيت ا مستور الحجب ... ما ذبح عبد ا فينا باللعب) .

(فدون ما يبغي خطوب تضطرب) .

ثم وثب السادات من قريش إلى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث إن هذا الذي عزمت عليه عظيم و إنك إن ذبحت ابنك لم تتهن بالعيش من بعده و لكن لا عليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نسير معك إلى كاهنة بني سعد فما أمرتك من شيء فامتثله فقال عبد المطلب لكم ذلك و كانوا يرون الكهانة حقا ثم خرج في جماعة من بني مخزوم نحو الشام إلى الكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده و ارتجز يقول : .

(يا رب إني فاعل لما ترد ... إن شئت ألهمت الصواب و الرشد) .

(يا سائق الخير إلى كل بلد ... قد زدت في المال و أكثرت العدد) .

فقالت الكاهنة : انصرفوا عني اليوم فانصرفوا و عادوا في الغد فقالت : كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلدكم و قدموا هذا الغلام الذي عزمتم على ذبحه و قدموا معه عشرة من الإبل ثم اضربوا عليه و على الإبل القداح فإن خرج القدح على الإبل فانحروها و إن خرج على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم .

فانصرف القوم إلى مكة و أقبلوا عليه يقولون : يا أبا الحرث إن لك في إبراهيم أسوة فقد علمت ما كان من عزمه في ذبح ابنه إسماعيل و أنت سيد ولد إسماعيل فقدم مالك دون ولدك .

فلما أصبح عبد المطلب غدا بابنه عبد ا إلى الذبح و قرب معه عشرة من الإبل ثم دعا بأمين القداح و جعل لابنه قدحا و قال : اضرب ولا تعجل فخرج القدح على عبد ا فجعلها عشرين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها ثلاثين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها أربعين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها خمسين .

فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها ستين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها سبعين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها ثمانين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها تسعين فضرب فخرج القدح على عبد ا فجعلها مائة و ضرب فخرج القدح على الإبل فكبر عبد ا و كبرت قريش و قالت : يا أبا الحارث إنه قد أنهى رضاء ربك و قد نجا ابنك من الذبح فقال : لا و ا حتى أضرب عليه ثلاثا فضرب الثانية فخرج على الإبل فضرب الثالثة فخرج على الإبل فعلم عبد المطلب أنه قد أنهى رضاء ربه في فداء ابنه فارتجز يقول : .

(دعوت ربي مخلصا و جهرايا رب لا تنحر بني نحرا) .

(و فاد بالمال تجد لي و فرا أعطيك من كل سوام عشرا) .

(عفوا و لا تشمت عيونا حزرا بالواضح الوجه المغشى بدرا) .

(فالحمد الأجل شكرا ... فلست و البيت المغطى سترا) .

(مبدلا نعمة ربي كفرا ... ما دمت حيا أو أزور القبرا) .

ثم قربت الإبل و هي مائة من جملة إبل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد ا و تركت في مواضعها لا يصد عنها أحد يتناوبها من دب و درج فجرت السنة في الدية بمائة من الإبل إلى

يومنا هذا و انصرف عبد المطلب بابنه عبد ا فرحا فكان عبد ا يعرف بالذبيح .

محمد ابن الذبيحين : .

و لذلك قال النبي صلى ا تعالى عليه و سلم : [أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام و أباه عبد ا بن عبد المطلب] و هذا من صنع ا تعالى لرسوله لما قدره من رسالته و قضاه من آيات نبوته فما يخلو نبي من بلوى منذرة و لا ملك من بلية زاجرة